بدايات التعليم في مشتى الحلو
(منطقة صافيتا - سورية)

عيسى فتّوح*

تعود بدايات التعليم في «مشتى الحلو» إلى عام ١٨٧٩، وأوّل معلّم مارس هذه المهنة هو المرحوم إسْبِر عبدوش، وقد كان معلّمًا صارمًا قاسيًا، ربّما لأنّه كان متعابًا في رجله، ويعرج إذا مشى.

يعتبر بيت إسْبِر عبدوش أوّل مدرسة في المشتى وضواحيها، ولم يكن المعلّم متفرّغًا لشؤون التعليم، بل كان يمارس أعمالًا أخرى، بالإضافة إلى كونه معلّمًا، وكانت الصناعة الشعبيّة المعروفة في المشتى هي حياكة العباءات. لم يكن المعلّم يملك ساعة لتحديد الوقت، فكان التلاميذ يبكّرون في الحضور إلى المدرسة، ومَن تأخّر عن الوصول في الوقت المعيّن، نال عقابًا صارمًا يتناسب مع مدّة التأخّر. يظلّ التلاميذ في المدرسة من الصباح حتّى المساء، وعند الظهر يذهبون إلى بيوتهم لتناول طعام الغداء، وكان كلُّ تلميذ يحمل إلى معلّمه رغيفًا من الخبز، وقطعة من الحطب لإشعال النار في الشتاء، ومَن حمل معه شيئًا آخر كالفاكهة وغيرها، نال حظوة كبيرة في عيني المعلّم.

لم تكن تتخلّل الدروس أيّة فرص أو استراحات، وإذا احتاج التلميذ إلى قضاء حاجة، ذهب إلى المعلّم وبسط أمامه راحة كفّه قائلًا: «دستور يا

(*) أديب وناقد وباحث من سورية (مشتى الحلو).

معلّمي» فيضربه المعلّم حينئذ برفق أو بشدّة بقضيب من الرمّان لم يكن يفارق يده أبدًا، ويسمح له بالخروج أو يعتذر عن تلبية حاجته.

كانت القراءة تتلى بصوت عال، فإذا انخفضت الأصوات، نبض المعلّم وأخذ يُلهب ظهور التلاميذ بقضيب الرمّان المذكور، فترتفع أصواتهم من جديد، حتّى تكاد تصمّ الآذان. وكان «الفلق» - وهو الضرب بالعصا على قفا الرجلين - أشدّ أنواع العقوبات التي تنزل بهم، وبالإجمال كانت العقوبات شديدة لا رحمة فيها ولا شفقة.

وحينما كان التلميذ ينهي كتاب المزامير للنبيّ داود، يربط رفاقه يديه بزنّاره إلى الوراء، ويذهب به المعلّم وجميع التلاميذ إلى بيت أهله، وقد أمسك أحد التلاميذ بطرف الزنّار السائب. وعند وصولهم يستقبلهم الأهل بالترحيب، فيقدّمون للمعلّم هديّة خاصّة، ويضعون للباقين طبقًا من الزبيب والتين المجفّف وغيرهما، أمّا أجرة المعلّم فكانت نصف ريال مجيديّ على كلّ «سَحَر» من أقسام المزامير[1].

كان التلاميذ يكتبون في بداية تعلّمهم بالقلم الغزّار والحبر على صفيحة معدنيّة لامعة من صفائح البترول توفيرًا للورق، فإذا امتلأت محاها التلميذ بغسلها في الماء وتنشيفها لاستعمالها مرّة أخرى. وكان الخطّ نوعين: «الكتبيّ» وهو خطّ واضح يستعمل لنسخ الكتب، و«المُعَلَّق» ويستعمل في المراسلات والدواوين.

المدرسة الإنجيليّة في المشتى

كان التنافس على افتتاح المدارس بين اليسوعيّين والمرسلين الأميركيّين على أشدّه في كلّ مكان من سورية ولبنان، وقد تجلّت صورته واضحة في مشتى الحلو، فكلّما افتتح اليسوعيّون مدرسة سارع المرسلون الأميركيّون لافتتاح مدرسة أخرى مماثلة، واستدرجوا الطلاّب إليها

(١) يقسم كتاب المزامير إلى سبعة أقسام يُسمّى كلّ قسم منها «سَحَرًا» يُتلى منه كلّ صباح سَحَرُ ذلك اليوم.

بمختلف الوسائل والسبل، ولذلك فعندما افتتح اليسوعيّون مدرسة في حارة الموارنة «بيت سركيس»، واستخدموا للتعليم فيها المعلّم ميخائيل ابن الخوري يوسف صاحب النفوذ القويّ في القرية، والمعلّم جرجس القرّاء المعروف جيّدًا في المشتى، أسرع القسّ أوسكار هاردن، والدكتور صموئيل جسب، والدكتور الطبيب وليم كليون من طرابلس إلى المشتى وطلبوا من وجهائها أن يأذنوا ليم بافتتاح مدرسة يديرونها بحسب نظام المدارس الأميركيّة، فوافق الأهالي على طلبهم، وأرسل لهم المعلّم قاسم أبو غانم من كفر نبرخ في لبنان، وزوجته المعلّمة شمس ابنة واعظ كنيسة صافيتا الإنجيليّة، ففتح المعلّم قاسم مدرسة للصبيان، والمعلّمة شمس مدرسة للبنات في الغرفتين الخارجيّتين من دار سليمان الحلو عام ١٨٨٠، وقد استعملت فيهما الحركات والقراءة المشكّلة، والحساب المركّب، والكسور، وغير ذلك من مبادئ العلوم الحديثة.

لكنّ هذه المدرسة لم تعش طويلًا لأنّ معلّمها الأخير ديب الكفوريّ لم يكن مستقرًّا في أفكاره وآرائه ومبادئه، ولم يطمئنّ لعلاقته بالمرسلين الأميركيّين، لذلك تحوّل عنهم إلى مدرسة اليسوعيّين في «بيت سركيس»، وانحلّت المدرسة الإنجيليّة.

ولمّا تخرّج المعلّم نسيم متري الحلو من مدرسة صيدا الأميركيّة، ورأى ما آلت إليه مدرسة قريته المشتى، اتّفق مع المرسلَيْن الأميركيّين: القسّ مارش، والدكتور نِلْصن، في أثناء زيارتهما المشتى، على إعادة افتتاح المدرسة الإنجيليّة فيها، فوافقا على ذلك بشرط أن يتولّى هو التعليم فيها، وقد رضي لئلّا تفوت الفرصة، وتبقى المشتى بلا مدرسة إنجيليّة، فترك حمص بعد أن علّم في مدرستها الإنجيليّة سنتين (١٨٨٩-١٨٩٠)، إلّا أنّه لم يتقدّم أحد في القرية لمناصرته وشدّ أزره، بسبب نفوذ اليسوعيّين، وميل سكّان المشتى الأرثوذكس إليهم.

لَقِيَ المعلّم نسيم الحلو صعوبات جمّة في إعادة افتتاح المدرسة الإنجيليّة في البدء لأسباب منها أنّ كبير عائلة الحلو كان يمالئ

اليسوعيّين، لكن ذلك لم يوهن عزيمته، ولم يضعف من إرادته، بل زاده إصرارًا وتصميمًا، وفعلًا فتح المدرسة بعدد قليل من التلاميذ الذين كان أهلهم غير واثقين بتعليم اليسوعيّين، فأخذت تنمو شيئًا فشيئًا، ويزداد عدد طلّابها بالانتقال من مدرسة اليسوعيّين، الأمر الذي أدّى إلى تقليص عدد معلّميها من ثلاثة إلى اثنين. والغريب أنّ أخا نسيم الحلو، واسمه أنيس، كان أحد معلّمي مدرسة اليسوعيّين الرئيسيّين، وكان الأب اليسوعيّ المسؤول يدعى إلى الضيافة في بيت الأخوين نسيم وأنيس المشترك، لا إلى الطعام فحسب، بل إلى النوم أيضًا، فلا يُقْبِر أحد الجناء أو العتاب للآخر.

يروي المعلّم نسيم الحلو في مذكّراته[٢] هذه الحادثة الطريفة التي تبيّن مدى التنافس الشديد بين المدرستين: الإنجيليّة واليسوعيّة، وانقسام عائلة الحلو الكبيرة إلى فريقين يناصر كلّ واحد منهما إرساليّة ومدرسة، فيقول:

«حدث ذات يوم، وأنا أعلّم في المدرسة، أن دخل عليَّ عمّي كبير عائلة الحلو، ومقدّم البلدة، وهو يتوكّأ على عصاه، فوقف في وسط الغرفة، وقال بلهجة الآمر: «بإذن مَن فتحت هذه المدرسة؟»، فأجبته فورًا ودون لجلجة «بإذنك!» فبغت لهذا الجواب، ثمّ عاد فقال: «إصرف التلاميذ ولا تقبل أحدًا عندك» فأجبته: «أنا مأمور بأن أفتح المدرسة لكلّ طالب، وسأستمرّ في فتحها، أمّا أنتم فيمكنكم أن تمنعوا التلاميذ من المجيء إلى مدرستي»، وبهذا القدر من الحوار تمّت المقابلة، وقفل راجعًا، وبقيت المدرسة ساثرة على سابق عهدها من الحرّيّة، واقتنع المقاومون بعدم جدوى هذه المناورات».

إستمرّت المدرسة الإنجيليّة تتقدّم بخطى حثيثة، وتستقطب أبناء المشتى حتّى عام ١٨٩٤، حيث غادرها المعلّم نسيم ليلتحق بمدرسة اللاهوت في سوق الغرب، وبعدها إلى صيدا ليتولّى إدارة مدرسة الفنون

(٢) نشرتها مكتبة «المشعل» في بيروت العام ١٩٥٠.

الأميركيّة فيها، فأخذت مدرسة المشتى تتعثّر وتضطرب، لأنّه لم يحلّ محلّه معلّم كفؤ، يسهر على مصلحة أبناء قريته ويرعاهم كرعايته، حتّى توقّفت نهائيًّا في منتصف الأربعينات من هذا القرن.

أمّا اليسوعيّون فقد ابتنوا ديرًا ومدرسة للراهبات في قرية «كفرون بشّور» القريبة من مشتى الحلو، ولمسوا من أهل القرية الموارنة كلّ عون وتشجيع على الاستمرار في أداء رسالتهم التبشيريّة والتعليميّة، ثمّ توسّع نشاطهم شيئًا فشيئًا حتّى شمل جميع القرى المحيطة، بغضّ النظر عن مذاهب أهلها، وانتماءاتهم الطائفيّة، ولا تزال هذه المدرسة قائمة حتّى اليوم، تواصل مهامّها التربويّة والتعليميّة والتثقيفيّة، ولكن حتّى نهاية المرحلة الابتدائيّة فقط.

ذكرتُ طائفتين من البعثات التبشيريّة التي اتّخذت من المشتى وضواحيها مركزًا للتنافس، وفاتني أن أشير إلى بعثة ثالثة روسيّة وصلت إلى تلك المنطقة، وابتنت مدرستين ابتدائيّتين، الأولى في «كفرون بَدْرَه» والثانية في مشتى الحلو ذاتها، وكانتا تعلّمان اللغة الروسيّة إلى جانب اللغة العربيّة، ولا يزال عدد من المسنّين في كفرون بدره يجيدون تلك اللغة ويتحدّثون بها حتّى اليوم، لكنّها ستنقرض بموتهم حتمًا، وقد تحوّلت المدرستان الروسيّتان إلى مدرستَيْن رسميّتَيْن، ولم يبقَ أيّ أثر لتعليم الإرساليّات التي مثّلت دورًا كبيرًا في التبشير والتعليم معًا.

في مشتى الحلو اليوم ثانويّة رسميّة واحدة، ومدرستان ابتدائيّتان رسميّتان للذكور والإناث، ولا داعي لأن أذكر أنّ القرى المحيطة قد غُطّيت بشبكة من المدارس الابتدائيّة والإعداديّة والثانويّة، لكنّها مع ذلك تقصّر عن استيعاب الطلّاب الذين يزدادون كثافة عامًا بعد عام، بسبب إقبال الناس الشديد على العلم، نتيجة للوعي المبكر الذي انتشر في المنطقة، ومبعثه تنافس الإرساليّات الثلاث المذكورة على فتح المدارس ونشر العلم، فجنى الشعب من ذلك أفضل الثمار.

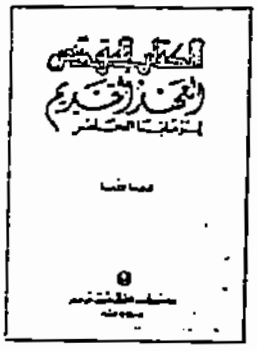

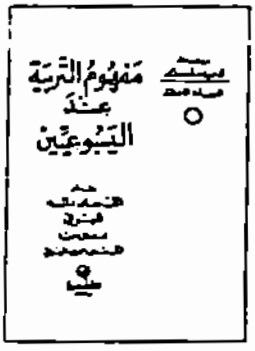

الكتاب المقدس
العهد القديم

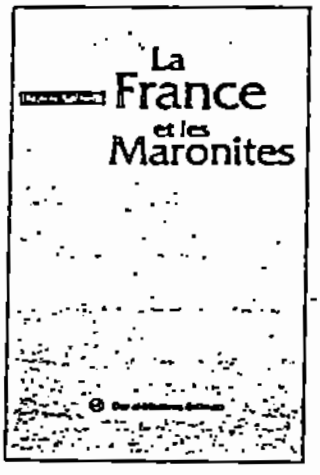

مفهوم التربية
عند
اليسوعيين

La
France
et les
Maronites

١
المقدسي
البشاري

٢
الهمداني